"لا ينمو العقل إلا بثلاث: إدامة التفكير،

ومطالعة كتب المفكرين، واليقظة لتجارب الحياة"

- السباعي -

مصطفى الرافعي (١٨٨٠-١٩٣٧):

الأصم الذي أصبح أحد أئمة الأدب

المولد والنشأة:

ولد مصطفى صادق الرافعي في ربيع الأول ١٢٩٧هـ الموافق ليناير ١٨٨٠م في بهتيم إحدى قرى محافظة القليوبية بمصر، لأبوين سوريَّين؛ حيث يتصل نسب أسرة والده بعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين.

وقد وفد من آل الرافعي إلى مصر طائفة كبيرة اشتغلوا في القضاء على مذهب الإمام الأكبر أبي حنيفة النعمان حتى آل الأمر إلى أن اجتمع منهم في وقت واحدٍ أربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية؛ وأوشكت وظائف القضاء أن تكون حِكراً عليهم، وقد تنبه اللورد كرومر لذلك وأثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية البريطانية.

أما والد الرافعي الشيخ عبد الرزاق سعيد الرافعي فكان رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم المصرية، وقد استقر به المقام رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية، وهناك كانت إقامته حتى وفاته، وفيها درج مصطفى صادق وإخوته لا يعرفون غيرها، ولا يبغون عنها حولاً.

أما والدته فهي من أسرة الطوخي وتُدعى " أسماء " وأصلها من حلب، سكن أبوها الشيخ الطوخي في مصر قبل أن يتصل نسبهم بآل الرافعي. وهي أسرة اشتهر أفرادها بالاشتغال بالتجارة وضروبها.

وكان والد "مصطفى" يهيئه لحياة عملية مثمرة، فألحقه بالمدارس الابتدائية حتى نال شهادتها، لكنه لم ينجح في استكمال تعليمه الثانوي؛ بسبب حمى أصابته وتركت صممًا في إحدى أذنيه، ولم يجد العلاج في شفائها، ثم انتقل الصمم إلى الأذن الأخرى، وفي سن الثلاثين أصبح "الرافعي" في عزلة تامة عن عالم الأصوات.

وانصرف "الرافعي" إلى مكتبة أبيه العامرة بكتب التراث العربي ينهل منها، ويقضي معظم وقته في القراءة والدرس، وقد أتاح له أن يقف على عيون الأدب العربي ونماذجه الرفيعة، وعلى تاريخ الأمة ورجالها الأبرار، وأن يتمثل ذلك كله ويعيش فيه.

وقد التحق "الرافعي" بوظيفة كاتب بمحكمة طلخا الشرعية سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، ثم نُقل منها إلى محكمة إيتاي البارود، ثم إلى محكمة طنطا الشرعية، ومنها إلى محكمة طنطا الأهلية، وظل بها حتى وفاته.

في عالم الشعر والأناشيد:

بدأ "الرافعي" حياته الأدبية شاعرًا، مُتَطلعًا إلى أن تكون له مكانة مرموقة بين الشعراء العظام تلاميذ "البارودي"– إمام النهضة الشعرية– وكان ينشر شعره في المجلات ذائعة الصيت في ذلك الوقت؛ كـ(الضياء)، و(البيان)، و(المقتطف)، و(الهلال).

وأصدر وهو في الثالثة والعشرين من عمره ديوانه الأول، وقد لقي استحسانًا وتقديرًا، ونشرت جريدة (المؤيد) في صفحتها الأولى مقدمة الديوان،

وبلغ من جودتها أن الشيخ "إبراهيم اليازجي" شكَّ في أن يكون كاتبها واحدًا من عصره وأن يكون في هذا العمر اليافع، فلما تيقن أنها من إنشاء "الرافعي" كتب مشيدًا بها في صحيفة (الضياء).

وتدفقت شاعريته، فملأت جزأين آخرين من ديوانه. كان الشيخ "محمد عبده" يعجب به، وقال عنه: "أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفًا يمحق به الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل".

ثم انصرف "الرافعي" إلى النثر وميدانه الرحيب الذي لا يعرف قيود القوافي والأوزان، لكنه كان من وقت لآخر يعود إلى الشعر، حتى أُختير شاعرًا للملك "فؤاد" سنة (١٣٤٥هـ= ١٩٢٦م) بعد وفاة الشاعر الكبير "عبد الحليم المصري".

وقد برز "الرافعي" في ميدان الأناشيد الوطنية، وذاع نشيده الأول الذي نظمه سنة (١٣٤٩هـ= ١٩٣٠م)، وتردد على ألسنة الطلبة في ذلك الوقت، ومطلعه:

بلادي هواها في لساني وفي دمي

يمجدها قلبي ويدعو لها فمي

واشتهر نشيده "اسلمي يا مصر"، وكان النشيد الذي رددته أجيال من الطلبة والشباب، حتى أصبح نشيد مصر القومي منذ عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م إلى عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

مؤرخ الأدب العربي:

بعد أن أُنشئت الجامعة المصرية الأهلية كتب "الرافعي" مقالة سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) ينعى فيها الجامعة بعض مناهجها في تدريس الأدب وتاريخه،

وكان من شأن ذلك أن أعلنت الجامعة عن مسابقة لتأليف كتاب في تاريخ الأدب، وحددت عامين مدة للانتهاء من تأليف الكتاب، ورصدت جائزة مالية مكافأة للكتاب الفائز.

وقد أكب "الرافعي" على تأليف كتابه من منتصف سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م) حتى آخر سنة (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م) حتى أنجزه قبل الموعد المطلوب، ثم طبعه على نفقته سنة (١٣٢٩ هـ/ ١٩١١م)، ولم يتقدم به إلى الجامعة.

وقد تناول في كتابه تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها، وما يتصل بذلك، وتاريخ الرواية ومشاهير الرواة، وما تقلب من ذلك على الشعر واللغة، وكان الكتاب جيداً في موضوعه، عميقًا فيما تناول من قضايا، غزيراً في مادته العملية، وقد أُستقبل الكتاب استقبالاً حسنًا، ولفت الأنظار إلى مؤلفه المتمكن من أدواته، واسع الاطلاع، وممن انتبه إلى ذلك "أحمد لطفي السيد"، فكتب في صحيفة "الجريدة": إن المؤلف قد ملك موضوعه ملكًا تامًا، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفًا حسنًا، وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء إلا بعد درس طويل وتعب... أما أسلوب "الرافعي" في كتابته فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا، نحن العرب المتأخرين.

ثم أصدر "الرافعي" الجزء الثاني من كتابه في السنة التالية، وكان (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)، أما الجزء الثالث من كتابه فقد تُوفِّيَ قبل أن يُطبع، ويعد كتاب "الرافعي" من الدراسات الرائدة في التاريخ للأدب العربي، وكان من الأسباب التي جعلت الجامعة المصرية تدخل مادة تاريخ الأدب العربي ضمن مناهجها الدراسية.

تحت راية القرآن:

يعرف دارسو أدب "الرافعي" المعركة الهائلة التي اشتعلت بينه وبين العقاد، وهي تعد من أشهر المعارك الأدبية في التاريخ الأدبي المعاصر، استعمل فيها كل طرف ما يملك من أدوات، تجاوزت الموضوعية والحوار الملتزم حول أدب كل منهما، وكان الظن أن لا يصل الأمر إلى هذا الحد، لكن تنافس الأقران، واعتزاز النظر حال دون التقائهما.

وأما معركته الأخرى الشهيرة فكانت مع "طه حسين"، وكانت بسبب كتابه "في الشعر الجاهلي"، الذي أنكر فيه أصالة الشعر الجاهلي، ورماه بالانتحال، ولم يكن في ذلك صاحب رأي أصيل، توصل إليه بعد دراسة وتحليل؛ وإنما كان مرورًا لآراء المستشرق الإنجليزي "مرجليوث"، وإن سبغ ذلك بالموضوعية وحرية البحث، ولم يكتف بذلك، بل تعرض للمقدسات الإسلامية، وشكك فيما جاء به القرآن حول "إبراهيم" و"إسماعيل"- عليهما السلام- وأحدث الكتاب دويًا هائلاً، وفنده كبار الكتّاب وأئمة العلم، وكشفوا ما فيه من ضعف الاستدلال، وتجنٍّ على الحقائق، وافتراء على الثوابت، وتعسف في الاستنتاج، ومن هؤلاء الدكتور "محمد أحمد الغمراوي" في كتابه "النقد التحليلي لكتاب (في الأدب الجاهلي)"، والشيخ "محمد الخضر حسين" في كتابه "نقض كتاب في الشعر الجاهلي"، ودخل "الرافعي" هذه المعركة مزودًا بثقافة أدبية هائلة، ودراية واسعة بالتاريخ، وبصر عميق بالشعر، وكان قد سبق له أن تناول قضية الانتحال في الشعر الجاهلي في كتابه "تاريخ آداب العربية"، لكن ليس على النحو الذي اتبعه الدكتور "طه حسين"، وخلص فيه إلى الزعم بأن "الكثرة المطلقة مما نسميه أدبًا جاهليًّا ليس من الجاهلية في شيء؛ وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام.

وكتب "الرافعي" مقالاته التي توالت على صفحات جريدة "كوكب الشرق"، تكشف الزيف الذي يحمله كتاب (في الشعر الجاهلي)، ويدافع عما مسَّ الدين

والأدب من قذف واتهام دون روية وتأنٍّ، ودعا "الرافعي" المسئولين إلى الحيلولة دون نشر هذه الأفكار بين طلبة الجامعة، ونجح "الرافعي" بما أوتي من براعة في العرض، وحيوية في البيان، وقدرة على محاصرة الأفكار الهدامة وكشفها في أن يسلط الأضواء على الكتاب والثورة على صاحبه الذي اضطر في آخر الأمر إلى أن يكتب خطابًا للجامعة يشهد فيه بأنه مسلم مؤمن بالله وكتبه وملائكته ورسله، وقد جمع "الرافعي" هذه المقالات النارية في كتاب أطلق عليه "تحت راية القرآن"، وهو يعد وثيقة هامة في تاريخنا المعاصر، كشفت محاولات التعريب والتعدي على تراث الأمة.

رائد الأدب الإسلامي:

تأكدت مكانة "الرافعي" بما كتب وألف، وتعلقت الأنظار باعتباره إمام الكتاب الذين يدافعون عن لغة الأمة وعروبتها وإسلامها، ويقف حارسًا يقظًا يواجه أعداءها بكل ما يملك من لغة وبيان.

وحين ظهرت مجلة (الرسالة) الغراء كان "الرافعي" واحدًا من نجومها اللامعين، وعلى صفحاتها نشر أجود ما كتب لغة وفكرة، وتخفف كثيرًا في أسلوبه؛ لأنه كان يوالي المجلة بمقالاته كل أسبوع، تناول فكرة تحتاج إلى توضيح، أو قضية عامة تفتقر إلى بيان وجلاء، أو معنى يريد أن يرسخه، أو لمحة تاريخية يجملها بقلمه الساحر، ويضيء جوانبها بفكره الوثاب.

وجمعت مقالاته التي توالت بين المعاني الإنسانية السامية، والتحليل المحلق، والبيان الرائق، والأسلوب المشرق، فكتب عن الهجرة النبوية، وقرآن الفجر، والصوم، والإسراء والمعراج، والأذان، وغيرها من الموضوعات مما لا يظن أن قلم الأديب يمكن أن يتناولها، لكنها صارت بقلمه نابضة بالحياة عامرة بالمعاني، فتألقت في ثيابها القشيبة التي ألبسها لها "الرافعي" الفنان، اقرأ ما كتبه عن

الأذان، مثل قوله: "بين الوقت والوقت من النهار والليل تدوي كلمة الروح: الله أكبر، ويجيبها الناس: الله أكبر؛ ليعتاد الجماهير كيف يُقادون للخير بسهولة، وكيف يحققون في الإنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد، فتكون الاستجابة إلى كل نداء اجتماعي مغروسة في طبيعتهم بغير استكراه، فلا تضطربوا، هذا هو النظام، ولا تنحرفوا، هذا هو المنهج، لن يكبر عليكم شيء مادامت كلمتكم: الله أكبر".

وقد جُمعت هذه المقالات التي كتبها في مجلة (الرسالة) وغيرها في كتابه (وحي القلم)، الذي يجمع كل خصائص "الرافعي" الأدبية، متميزة بوضوح في أسلوبه، وفي خلقه ودينه، وشبابه وعاطفته، وتزمته ووقاره، وفكاهته ومرحه، وغضبه وسخطه، وهي تعد من أروع ما كتبه أديب عربي معاصر، بل من أجلّ ما كُتب في تاريخ اللغة العربية.

مؤلفاته:

ذكرنا في أثناء حديثنا عن حياة "الرافعي" بعضًا من كتبه التي هي جزء من تاريخه، ونفثة من نفسه، وقطعة من روحه، وإلى جانب ما ذكرنا له مؤلفات من الأدب الراقي، منها:

- حديث القمر: وكتبه بعد رحلته إلى لبنان سنة ١٩١٢م.

- المساكين: وكتبه عام ١٩١٧م.

- رسائل الأحزان: وكتبه سنة ١٩٢٤م.

- السحاب الأحمر: وصدر بعد رسائل الأحزان بأشهر قليلة.

- على السفود: وهو يجمع بعض مقالاته التي هاجم فيها العقاد، ونشر دون أن يكتب عليه اسم "الرافعي"، واكتفى على غلافه بهذه العبارة: "بقلم إمام من أئمة الأدب العربي".

- أوراق الورد: وهي تكملة لكتابيه رسائل الأحزان والسحاب الأحمر.

وفاته:

ظل "الرافعي" حتى آخر حياته متيقظ العقل، متوهج الفكر، لا يشكو من علة معقدة أو مرض يلزمه الفراش، حتى استيقظ في فجر يوم الإثنين ٢٨ صفر ١٣٥٦هـ الموافق ١٠ مايو ١٩٣٧م، فتوضأ وصلى، وجلس يقرأ القرآن الكريم، وشعر باضطراب في معدته، فأعطاه ابنه الدكتور "محمد" دواء، وطلب منه أن يخلد للراحة والنوم، وبعد ساعتين استيقظ "الرافعي"، وبينما هو في طريقه إلى الحمام سقط مسلمًا الروح، بعد عمر ناهز ٥٧ عاماً، تاركًا تراثًا خالدًا، وذكرى عطرة.

وكان الرافعي إذ ذاك ما يزال يعمل كاتباً ومحصلاً مالياً في محكمة طنطا، وهو العمل الذي بدأ به حياته العملية عام ١٩٠٠م.

* * *